الفقه الإسلامي في مواجهة التحديات العصرية

سيد عبد الرحمن بخاري*

قال إقبال بحق:"إن الإسلام ـ [بجميع أجزائه وفروعه بما فيها الفقة الإسلامي] ـ يواجه اليوم للمرة الأولى في تاريخه تحد يا مصيريا منبعثا من واقع العصر الحديث[1] " ودراسة واقع الفقه الإسلامي وطبيعة الأوضاع الراهنة كفيلة بإثبات ما قرره اقبال، كما أنها تمثل منطلقا حقيقيا لابراز أهمية هذا البحث وتحديد وظيفته ومجاله:

أولا ـ الفقه الإسلامي في مواجهة التحديات العصرية:

إن الفقه الإسلامي بوصفه ممثلا حقيقيا[2] للفكر الإسلامي يواجه ـ تبعا للأمة الإسلامية ـ مختلف التحديات الخطيرة يمكن للفقه الإسلامي التجنب والإنعزال عن سواء من الداخل أم من الخارج، كما يواجه سلسلة من مشاكل الحياة المعاصرة، ولا الحياة وتحدياتها، إلا إذا سمح لنفسه بالتخلف والجمود. وذلك أمر لا يتفق ومبادئ الدين الذي جاء به خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ـ ومن أهم وأخطر هذه التحديات ما يلي:

١ـ التصارع للبقاء: التنازع للبقاء سنة طبيعية وظاهرة اجتماعية، وهو كما يحدث بين القوات الطبيعية، والهيئات الإجتماعية، فكذا يحدث بين الأفكار والمبادئ والأنظمة؛

---

* المشرف الأعلى للتحقيق (مكتبة القائد الاعظم)

وهذا التنازع الإجتماعي لانهاية له لأنه له من أهم ضروب الحركة التي هي من خواص الهيئة الإجتماعية، فهو يحدث في كل عصر وجيل منذ أن نشاء الإنسان وتكونيت الجماعات ولولاه لما تطورت الأمم والمدنيات، وهذا التنازع للبقاء كما يحدث بين التقاليد القديمة والأنظمة المستحدثة في داخل أمة واحدة، فيحدث بين الأفكار والأنظمة والمدنيات على المستوي العالمي والأممي، والفوز النهائي يكون للجانب الأنفع والأقوي في وقت واحد[٣]. والفقه الإسلامي ـــ بوصفه ممثلا للتفكير الإسلامي والمدنية الإسلامية ـ لم يزل ولا يزال خاضعا لسنة النزاع، غير أن جوانب النزاع في العصر الحديث تختلف عن جوانب التنازع في الماضي، فنقطة النزاع اليوم هي البادئ الجيوبة كما يظهر مما يأتي:

ألف ـ اغارة الإلحاد على الدين: لقد برزت في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية، المخططات الإستمارية الصهيونية والاشتراكية الرامية إلى تدمير المجتمعات الانسانية، ولا سيما المجتمعات الإسلامية عن طريق طرح عديد من النظريات والمذاهب الوثنية والمادية، ونقطة الانطلاق في كل هذه المخططات هي المادية التي ترفض الأديان والرسالات السماوية وتدعو إلى بعث الوثنية والالحاد، ادعاءا بأن الديانات هي أفيون الشعوب، أو كما يقول انجلز وأمثاله: " إن الدين تخيل وهي للقوي الخارجية في الطبيعة التي تسيطر على حياة البشر، وهو انعكاس تتخذ فيه القوي الأرضية شكل قوي فوق طبيعة[٤]، " ولا شك في أن الهدف الأساسي لهذه التحديات اللادينية وأغارة الإلحاد هو الإسلام بتشريعاته وأنظمته وقيمه، لأنه هو المنهج الوحيد من بين الديانات، الذي اخذ وسوف يأخذ دائما دوره القيادي في حركة التطور العالمي، وظاهر أن حظ الفقه الإسلامي من هذ التحدي أعظم وأوفر لأنه هو الممثل الحقيقي به كما قلنا آنفا ـ للإسلام من الناحية الفكرية والمدنية معا.

ب ـ الغزو الفكري والثقافي: إن من أخطر التحديات التي يواجهها الفقه الإسلامي، هو الغزو الفكري والثقافي الذي يتركز حول مقومات ديننا، ويهدف اخضاع ثقافة الإسلام وفكره لثقافة الغرب المادية، واخراج المسلمين من ذاتيتهم ومميزاتهم ؛ ولقد أثر هذا النفوذ الغربي في كافة مجالات حياتنا ولكنه لم يستبد بعلم من علوم الإسلام استبداده بالفقه الإسلامي حيث نجح في ابعاده عن ساحة الحياة العملية للمسلمين وألجأهم إلى تطبيق القوانين المستوردة من الغرب [٥] وهكذا جاءت تبعية المسلمين للفكر الوافد نتيجة للاستعمار فهم يتحركون اليوم من داخل دائرة الفكر الذي فرضه عليهم النفوذ الغربي، ولذلك فإن أولى خطوات التحر من نفوذ التغريب والغزو الثقافي هو فرز المفاهيم والأنظمة الوافدة وأعادة الفكر الإسلامي إلى أصوله ومصادره الأساسية وتطبيق الفقه الإسلامي على الحياة العملية لأنه هو الذي بني مجد المسلمين في الماضي واقام حضارتهم العالية وظل حافظا للفكر الإسلامي طيلة العصور[٦]، وهو قادر على أن يدفع عن نفسه هذه الموجة الطاغية ـ كما دفع الموجات المستوالية والتحديات المتسلسلة عبر العصور وانتصر عليها ـ إذا أعيد إلى ساحة الحياة العملية للمسلمين ـ

ج ـ الحفاظ على الاصالة والذاتية: إن دخول العالم الإسلامي في القرن الخامس عشر مرحلة تسمي " بالصحوة الإسلامية " حيث بدأ المسلمون يتحولون من عصر التبعية إلى عصر الرشد الفكري تنيجة التجارب التي مرت بهم خلال القرن الرابع عشر: فلقد تبين لهم أن مناهج الحياة والتشريعات التي قدمها لهم الغرب بشقيه الرإسمالي والشيوعي خلال القرن الماضي لم تكن إلا تراكمات مجتمع آخر ونتيجة تحولات في عقائد وثقافات تختلف اختلافا

واضحا عن المجتمع الإسلامي، وآمنوا بعد تجربتهم الطويلة أن الأسلوب الصحيح لامتلاك الارادة والعودة إلى المجد القديم، هو تطبيق الفقه الإسلامي لأنه هو منهج القرآن والسنة ـــ ولكن هذه الصحوة الإسلامية تواجه تحديات ومعوقات كثيرة لأسباب متعددة قريبة وبعيدة ؛ ذلك أن مراكز القوي العالمية سوف تخسر الكثير من مواقعها ومنافعها إذا اتحدت الشعوب الإسلامية وقامت دولتهم التي تطبق الشرعية الإسلامية، لأن هذه الدولة سيكون لها من الإمكانيات ما يؤهلها من جديد لقيادة المسيرة البشرية ؛ وهذا الأمر جعل الخصوم يزدادون حقا وعداوة فهم يتجمعون للقضاءعلى هذه الذاتية الخاصة التي شكلها الإسلام في النفس المسلمة، وللصد عن تطبيق الفقه الإسلامي كمحاولة وحيدة وأخيرة لتحرير المجتمع الإسلامي من أسباب ضعفه واضطرابه وكمنطلق لامتلاك الارادة الأساسية للأمة الإسلامية وتاكيد وجودها وهذه الغاية التي هي قائمة اليوم وراء كل محاولات التغريب والتبشير والاستشراق والاستعمار وغيرها، تتمثل في الدعوة الي الاندماج الكامل في الحضارة الغربية ادعاءا بأن الفقه الإسلامي يطابق القانون الوضعي كل المطابقة، ومما يؤسف علىه أن الطائفة المثقفة بثقافة أوربية من المسلمين أيضا تدعي ذلك، فعلى سبيل المثال حضر يوما قاض من المحكمة الشرعية الفيدرالية، في الجامعة الإسلامية بإسلام آباد لالقاء كلمة حول عنوان " المقارنة بين الفقه الإسلامي والقانون الوضعي " حاول فيه اثبات تطابق القانون الوضعي مع الفقه الإسلامي حتي في المبادئ الأساسية فضلا عن الأحكام الفرعية، بغية التبرهن علىٰ عدم الحاجة إلى الغاء القانون الوضعي من باكستان واحلال افقه الإسلامي محله[٧] ـــ وعلى هذا، فإن أهم ما تواجهه اليوم هو ضرورة حماية "الذاتية الإسلامية " المتمثلة في تطبيق الفقه الإسلامي في جميع الأقطار

الإسلامية، لأن الفقه هو القوة الحامية لهذه الأمة من أن تذوب في العالمية والأممية ـ

٢ـ اتهام الفقه بأنه لا يصلح للعصر الحاضر:

لقد اختبر الإستعمار الغربي في أول احتكاكه مع العالم الإسلامي، قوة الإسلام في عقيدته وشريعته، وضعف المسلمين في مجتمعهم، وسعة ما يملكون من ثروة في بلادهم كما أفاد من هذا الاحتكاك في إعداد نفسه ورسم خططه انتهازا لزيادة ضعف المجتمع الإسلامي والفنككه كيْ يحصل على ما لدي المسلمين من ثروة ؛ وكان من أهم أهداف المخطط الإستعماري، التصدي لمقومات الفكر الإسلامي بوصفها مقومات جامدة لاتصلح للعصر الحاضر لا سيما الأحكام الفقهية التي تنظر الحياة الاجتماعية، ومن هنا ظهرت الحركة الاستشراقية التي استهدفت دراسة وتحليل الفكر الإسلامي من جميع نواحيه الدينية، والاقتصادية، والسياسية تحليلا يكشف صورة الضعف وعدم صلاحيته للعصر الحاضر فهاهو كرومر المندوب البريطاني في مصر، قد تعرض في كتابه " مصر الحديثة " لعلاقة الدين بالعمران وقرر " أن شريعة الإسلام لا توافق العمران في كل عصر وزمان وإن وافقته في بعض العصور، فقد وضعت قوانينها لتناسب الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، وهي لا تسمح بالمرونة الكافية لمواجهة المجتمع الإنساني." ثم تكررت هجمات كثيرة حاول بها المستشرقون النيل من الإسلام وفقهه عن طريق تثبيت اليأس في اذهان المسلمين من تطبيق الأحكام الفقهية فنشروا الاعتقاد بعدم صلاحية الفقه " الإسلامي للعصر الحاضر ومما يؤسف له أن طائفة من المسلمين قد قبلت هذه الأوهام والظنون الفاسدة[٨] التي تمثل أخطر التحديات للفقه الإسلامي فإنه ليس ثمة تهمة يرمى بها الدين ونظمه أفدح من

ذلك ولا دعوي أضر منه، ولا عداوة أشد من هذه العداوة. وهذا يقتضي هبة ثبات فضل الفقه الإسلامي وتفوقه على سائر القوانين الوضعية، وتحقيق صلاحيته لتنظيم الحياة العصرية على أروع صور التنظيم.

٣ـ تطلع العالم إلى نظام جديد:

لقد أصبح من الحقائق الظاهرة التي لا تحتاج إلى استدلال أن الغرب ومذاهبه الاجتماعية الحديثة على اختلاف فلسفاتها ومنابعها، لم تحقق للإنسان ما ينشده من سعادة وانسجام في حياة الأفراد، والأسر، والجماعات و لم تنجح في تقديم الحلول لمشاكل الاجتماع والاقتصاد وما يتفرع عليها من مشكلات الأخلاق والآداب فلقد استقرت الحضارة الغربية على ركائز ثلاثة أساسية هي: تقديس العقل، وتقديس العلم، وتقديس الحرية، ولكن هذا الافراط في احترام العقل والعلم والحرية الذي نشأ من تفريط سابق في احتقارها على حساب الدين قد ادي ـ مثلما يؤدي كل افراط وتفريط ـ الي ردات فعل عنيفة كان من أثرها تولد أزمات أخطرها:

١ـ أزمة الصراع الفكر حمول الإيمان والالحاد ـ ٢ـ أزمة الصراع الفكري حول طرق التعاون الاجتماعي بين الطبقات. و ٣ـ أزمة الانحلال الخلقي ـ ولقد واجه الغرب التحدي الحضاري الجديد الذي هو عبارة عن تحقيق الملائمة بين المبادئ الدينية ومقتضيات الحياة المتطورة، بالاتكاء على افكار الاغريق ورو ما والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتولدة عنها دون اعتبار ذات الإنسان ففشل في تحقيق التوازن بين طرفي ثنائية الحياة المادية والروحية كما فشل في تحقيق الملائمة بين المبادي الدينية السسيحية وبين مقتضيات الحياة المتغيرة، ومن هذا نتجت أزمة نفسية حادة هي أزمة القلق الإنساني التي يعاني منها جميع سكان البلاد الغربية والتي تظهر آثارها في جميع مظاهر الحياة. ولذا نري

اليوم إنسان الغرب يتطلع الي ايديو لوجية جديدة تملأ فكره و تحرر ضميره والي منهج ونظام اجتماعي جديد يخرجه من أزماته وانحلاله، ولا شك أن هذا التطلع الي أيديو لوجية ونظام جديد، يمثل تحديا هاما للفقه الإسلامي بمعناه الواسع الشامل لعلم الالهيات، وعلم الطريقة وعلم الشريعة. وخاصة بعد أن أصبح موضع عناية رجال العلم والقانون في العالم الذين أكدوا في المؤتمرات الدولية ما في هذا الفقه من قيمة تشريعية ومبادئ سامية تحقق التقدم وتلاحق التطور[٩] .

ولقد آن لنا ـ بعد هذا العرض السريع لأبعاد المشكلة العصرية ومعالم التحدي الحضاري الذي يواجهه الفقه الإسلامي ـ أن نتساءل ما موقف المسلمين الراهن تجاه هذه التحديات الخطيرة وما ذا يجب علىهم في هذا الصدد ؟ والإجابة على هذا السؤال هي التي تبرز أهمية هذا البحث ومجاله ووظيفته:

ثانيا ـ واجب المسلمين تجاه هذه التحديات:

لقد اتضح مما سبق أن التحديات الحضارية الراهنة هي أعمق وأشمل من جميع التحديات التي واجهها الفقه الإسلامي عبر العصور، أما ردود الفعل الفكرية الإسلامية على هذه التحديات فتتلخص في الاتجاهات الأربعة الرئيسية التالية:

١ـ الاتجاه المحافظ الذي لا يري في الحياة العصرية الراهنة إلا الخطر على مثالية الإسلام وفقهه، فيوجب حماية الفقه الإسلامي بجوهره وشكله القديم.

٢ـ الاتجاه التوسطي الذي يري في الحياة العصرية خيرها وشرها، ويوصي بالإقبال على خيرها وتغاري شرها، وينادي بالتوفيق بين خيرها وبين الفقه الإسلامي.

٣ـ الاتجاه المسترسل مع الحياة العصرية الذي يرمي أن قوانين حركتها هي أحدث

قوانين حركة الإنسان، ولذلك يري الأخذ بهذه القوانين أخذا كليا والإكتفاء بالإسلام كعقيدة شخصية ضميرية.

٤ـ الاتجاه المتجاوز لهذه المواقف الثلاثة، الذي يري أن تطور حركة التاريخ نسخت الأحكام الفقهية، بل نسخت الدين نسخا نهائيا، ولذلك لا بد من اعتماد موقف علمي عقلاني تجاه الحياة العصرية[١٠]ـ

هذه اتجاهات رئيسية أربعة نادي بها المصلحون منذ بداية القرن التاسع عشر حتي الآن، وكان لها تاثيرها المباشر أو غير المباشر في حياتنا النظرية والعملية، وفي تفاعلنا مع الحضارة الحديثة. والذي يبدولنا أن الموقف الحقيقي الفعال لمقاومة هذه التحديات الحضارية الخطيرة يتألف من ثلاثة عناصر رئيسية هي:

١ـ **شحذ الفعالية الروحية وتقوية الثقة الدينية للأمة:** إن الروحانية الفعالية في النفس المسلمة ترتبط بصورة مباشرة بعمق الإيمان ومقدار الاخلاص للعقيدة والحرص على التمسك بالمبادئ والأنظمة المنبثقة منها. والتربية الدينية تعتبر من أهم المصادر الأساسية لشحذ الفعالية الروحية ودعم الثقة الذاتية للأمة. ولذا فلا بد من بث الحيوية والدينامكية في برامج التربية الدينية، وأساليب عرض[١١] المواد الفقهية والثقافية بصورة تجعلها تتفاعل مع الشباب ومشكلات عصره لكن الإيمان وتزكي النفوس وتقوي العزيمة وتدعم الثقة حتي تنشأ الطليعة المؤمنة بصلاحية الدين الإسلامي وفقهه لهذا العصر ولكل عصره وعلى هذا، فلا بد من شحذ الفعالية الروحية للامة، ودعم ثقتها الذاتية لمقاومة التحدي المنبعث عن التصارع البقاء، والتحدي المنبث عن ادعاءات المستشرقين بأن الفقه الإسلامي لا يصلح للعصر الحاضرـ

٢ـ استيعاب أساليب الحضارة المعاصرة وابداع البدائل: العنصر الثاني للموقف الإسلامي الحقيقي لمقاومة التحدي الحضاري الراهن هو استيعاب الأصول والنظم والأساليب للحضارة المعاصرة استيعابا كاملا بغية تقييم البناء الحضاري على دعائم ثابتة راسخة نلتزم فيه باعادة النظر بصورة جذرية ومتعمقة الي كل نظم حياتنا وأساليب معيشتنا في اطار عقيدتنا ومبادئنا، كما نلتزم بايجاد البدائل للنظم المعاصرة على ضوء مقاصد الشريعة الإسلامية ومبادئها، على أن مهمة ابداع البدائل لا بد أن يضطلع بها علماء متخصصون فإنه أمر خطير يتطلب اختصاصا علميا وبصيرة نافذة واخلاصا حقيقيا، هذا، وبدون استيعاب أساليب الحضارة المعاصرة وابداع البدائل منها لا يمكن للأمة الإسلامية القيام بدورها الفعال في حركة التطور العالمي والاسهام في ايجاد النظام العالمي الجديد الذي أصبح ضرورة ملحة للعالم المضطرب القلق الذي يشكل تحديا أساسيا للأمة الإسلامية وللفقه الإسلامي كما أسلفنا ـ

٣ـ حماية المنجزات الحضارية للأمة: لا بد من حماية المنجزات الحضارية التي عملت الأمة على تحقيقها. وبذلت الجهد للحصول عليها، لكي تضمن سلامة مسيرتها الحضارية وتطمئن على رسوخها وحماية المنجزات الفكرية تعني أول ما تعني أن تظل المؤسسات الحضارية متطورة في عملها ومتقدمة في نظمها وحركية في أنجازاتها، ولا شك أن الخطوة الأولي في سبيل ذلك هو التطبيق العملي للأفكار والبادئ والانظمة، اذ كل شيء ينقطع عن الحياة العملية يفقد صلاحيته وحركته[١٢]، كما حدث للفقه الإسلامي في عصور الانحطاط ـــ وعلى هذا فتطبيق الفقه الإسلامي ـــ بوصفه ممثلا للحضارة الإسلامية والتفكير الإسلامي كما أسلفنا ـــ هو الخطوة الأولي لحماية جميع المنجزات

الحضارية لهذه الأمة ؛ وهو الذي سيقرر مصير هذه الأمة في عالم اليوم[١٣]، لأن مهلات كل أمة للحياة ومقوماتها للوجود هي التي تقرر مصيرها ؛ ومؤهلات هذه الأمة إنما تكمن في عقيدتها وشريعتها وتفاعلها معهما، فاذاعادات الأمة الي شريعتها ونقلتها نقلة جادة صادقة إلى حياتها وجعلتها أساس حركتها ومعيار سلوكها، فإنها ستكون بذلك لي الطريق الصحيح والقويم نحو المصير المأمول ـ

ومن هنا نتقرر أن تطبيق الشريعة الإسلامية وفقهها هو السبيل الوحيد لمقاومة جميع هذه التحديات الراهنة ولذا أصبح تطبيق الفقه مطمحا عاما من مطامح الأمة الإسلامية بعد أن جربت المذاهب الحديثة الغربية والشرقية وأحست فشلها في حل مشكلات الإنسان في العصر الحديث، كما أنه بدأت بالفعل محاولات العودة إلى الشريعة الإسلامية و تطبيق فقهها ولكنها محاولات مضطربة ليس لها ملامح واضحة من ناحية، ومن ناحية أخري فهي تواجه معوقات كثيرة ظاهرة وخفية، من أهمها عدم وضوح الطريق لاستئناف الحياة الإسلامية وفق الأحكام الفقهية، وعدم كون الأحكام الفقهية مدونة بصورة قوانين صادرة للإصدار، وعدم العناية بدراسة المشاكل المعاصرة وإيجاد الحلول الفقهية لها وغيرها من العقبات الأساسية التى لا بد من ازالتها لتكون محاولات العودة إلى الشريعة الإسلامية ناجحة مثمرة ـ

الهوامش

(١) عطاء الله : إقبال نامة ، ج ١ ص ٥١

(٢) على حسن عبد القادر ، نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى ، ص ١

(٣) راجع فصل " مدى الثبات والنظور فى الفقه الإسلامى " ، ص ٢٤٦

(٤) أحمد العرائشة : موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادى للتاريخ ، ص ٢١٦

(٥) انظر فصل " تجديد الفقه الإسلامى " ص ٢٨٣

(٦) علال الفاسى : دفاع عن الشريعة ، ص ١٥١

(٧) وانظر لرأى هذ القاضى ، مجلة "فكر و نظر" عدد خاص من "تطبيق الشريعة فى باكستان ، ص ٢٣٤ وما بعدها

(٨) انظر فصل " معوقات الاجتهاد وكيفية ازالتها ، " ص ٣٤٣

(٩) انظر فصل " تجديد الفقه الإسلامى ، ص ٢٨٢ وفصل " مدى الثبات والتطور فى الفقه " ص ٢٥٦

(١٠) انظر " الإسلام تجاه تحديات الحياة العصرية " لحسن صعب ، ص ٢٥

(١١) انظر فى هذا ، فصل " معوقات الاجتهاد وكيفية ازاتها " ص ٣٤٥ " وكذا فصل " تجديد الفقة الإسلامى ، " ص ٢٩٣

(١٢) انظر فصل " ظاهرة الجمود فى الفقه الإسلامى " ص ٢٧٤